الدرس العشرون

الإيمان بالقضاء والقدر

obeikandl.com

obeikandl.com

الإيمان بالقضاء والقدر

ورد الإيمان به في كتاب الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾[1]، ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾[2]، وفي السنة في قوله ﷺ: «أول ما خلق الله القلم فقال له أكتب؟ قال: وما أكتب، قال: أكتب مقادير كل شيء، إلى يوم القيامة»[3]، وفي جوابه ﷺ لجبريل عليه السلام عن الإيمان: «قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره»[4]، وقد أجمع أهل السنة على مشروعية الإيمان بالقضاء والقدر بما وردت به النصوص.

والقضاء والقدر يتعلق بصفة العلم الإلهي المطلق وشموله للغيب وهو ما لم يخلق بعد، والشهادة وهو ما تم خلقه، وبالتالي فإن الإيمان به من الإيمان بكمال علم الله تعالى فيكون القضاء بمثابة خطة الخلق والقدر بمثابة تنفيذ هذه الخطة.

تعريف القضاء والقدر: ـ

القضاء لغة: ـ هو إتمام الشيء قولاً: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[5]، ويطلق على إتمام الشيء فعلاً: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾[6]، كما يطلق على إرادة الشيء: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[7].

القدر لغة: ـ القدر بتسكين الدال المهملة أي غير المنقوطة معناه المنزلة ومنه

---

(١) القمر آية ٤٩.
(٢) الحديد آية ٢٢.
(٣) رواه أبو داود عن عبادة بن الصامت مرفوعاً، وسكت عنه المنذري في تخريج السنن. انظر جمع الفوائد ح ٢ ص ٣٢٩ كتاب القدر، رقم الحديث ٧٦٣١.
(٤) رواه مسلم وأصحاب السنن الأربعة عن عمر بن الخطاب. انظر نفس المصدر ح ١ ص ١١ كتاب الإيمان باب تعريف الإيمان والإسلام.
(٥) الإسراء آية ٢٣.
(٦) فصلت آية ١٢.
(٧) آل عمران آية ٤٧.

ليلة القدر، سميت بذلك لما فيها من عظيم المنزلة لمن يدركها: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾[١]، وبالتحريك في الدال بالفتحة معناه المساواة، تقول: فلان بقَدَرِ فلان أي مساوٍ له في القدر والحجم، والهيئة.

القضاء اصطلاحاً: ـ هو علم الله تعالى الأزلي السابق.

القدر اصطلاحاً: ـ هو مجيء المعلومات على وفق ذلك العلم الأزلي، عند جمهور علماء التوحيد، وذهب أبو منصور الماتريدي إلى عكس[٢] ذلك، ولا إشكال فيما ذهب إليه لأن منتهى الرأيين واحد، وقد اختلفت المذاهب الإسلامية في قضية القضاء والقدر نفياً وإثباتاً:

فذهب المعتزلة: إلى نفي القدر خوف الوقوع في الجبر فقالوا: إن الإنسان يأتي ما يفعله بمعزل عن علم الله تعالى[٣]، حتى اشتهرت عنهم عبارة: لا قدر والأمر أُنف، تغليباً لصفة العدل الإلهي على صفة العلم الإلهي.

وذهب الجهمية الجبرية: إلى أن الإنسان مسلوب الإرادة، فهو يفعل ما قدره الله تعالى عليه، غير قادر على المخالفة لأنه مجبر على ذلك، فهو كالريشة في الهواء[٤]، فغلبوا صفة القدرة الإلهية على صفة العدل الإلهي.

وذهب أهل السنة: إلى أن الإنسان مخير في سلوك الطريق الذي يريد، لأن الله تعالى زوده بالعقل وبالأجهزة التنفيذية التي ينفذ بها ما يختاره ليكون نتيجة ذلك أن يحاسب على عمله: «إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه».[٥]

وللرد على الجبرية والقدرية قال أهل السنة: إن لله تعالى إرادتين: إرادة كونية وإرادة شرعية[٦].

---

(١) القدر آية ٣.
(٢) انظر العقيدة الإسلامية وأسسها ص ٧٢٩.
(٣) انظر شرح الفقه الأكبر للقاري ص ٣٥. شرح العقيدة الطحاوية ص ٦٣٩.
(٤) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص ٦٣٩.
(٥) رواه مسلم عن ابن ذر عن النبي ﷺ فيما يرويه عن الله تعالى. انظر مختصر مسلم للمنذري ج٢، ص ٢٤٣ كتاب الظلم، باب تحريم الظلم، رقم الحديث ١٨٢٨.
(٦) وانظر الرد على القدرية والجبرية شرح العقيدة الطحاوية ص ٦٤٠ وما بعدها

فالإرادة الكونية صادرة عن علم الله تعالى ومتحققة بقدرة الله تعالى، ولذلك فإنها لا تتخلف بحال من الأحوال، لأن الله تعالى على كل شيء قدير: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾[1].

والإرادة الشرعية صادرة عن علم الله تعالى أيضاً ولكنها تتحقق بقدرة البشر وإرادتهم، فمنهم من يختار الاستجابة لها ومنهم من لا يفعل ذلك، فتتخلف فيه هذه الإرادة الشرعية، ومن هنا كان في الناس مؤمنون وكافرون، ولو تعلقت صفة القدرة الإلهية بالإرادة الشرعية لصار الناس جميعاً مؤمنين: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾[2]، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[3].

فالإرادة الكونية لا تتخلف لتعلُّق صفة القدرة الإلهية بها، وأما الإرادة الشرعية فقد تتخلف لعدم تعلق هذه القدرة الإلهية بها وإنما تتحقق بإرادة العبد وقدرته، وبالتالي فإن المعتزلة والجهمية خلطوا بين الإرادتين فحصل في رأيهم ذلك الخطأ.

وتنقسم الأفعال البشرية إلى ثلاثة أنواع: ـ

فعل في الإنسان: ـ وهذا لا يسأل عنه، كحركة نبض القلب والرئتين والمعدة، لأنها حركات لا إرادية.

وفعل على الإنسان: كسقوط حجر عليه مثلاً، فإنه لا مسؤولية عليه في ذلك ما لم يقصر، لأن التقصير من فعله فيكون مسؤولاً عنه.

وفعل من الإنسان: وهذا هو الذي عليه مدار التكليف لأنها حركات إرادية، قال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ﴾[4]، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ﴾[5]، ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾[6] وفي الحديث القدسي: (يا عبادي

---

(١) النحل آية ٤٠.
(٢) السجدة آية ١٣.
(٣) هود آية ١١٨.
(٤) فصلت آية ٤٦.
(٥) البقرة آية ٢٨٦.
(٦) المدثر آية ٣٨.

إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله تعالى ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلاّ نفسه)[1].

ويكون النوع الأول والثاني داخلاً ضمن إطار تدبير الله تعالى للكون والحياة، فيطلب من الإنسان الصبر عليه بكل حال، كما قال ﷺ (عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن إصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له)[2].

ومن هنا فإن الإيمان بالقدر يورث النفس السكينة ويوفر لها الطمأنينة ويعطيها الأمن ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾[3].

(١) رواه مسلم عن أبي ذر مرفوعاً. انظر مختصر مسلم للمنذري ح ٢ ص ٢٤٣ كتاب الظلم، باب تحريم الظلم والأمر بالاستغفار والتوبة. رقم الحديث ١٨٢٨.

(٢) رواه مسلم عن صهيب مرفوعاً. انظر نفس المصدر ح ٢ ص ٣١٦ كتاب الزهد والرقائق. باب المؤمن أمره كله خير. رقم الحديث ٢٠٩٢.

(٣) الأنعام آية ٨٢.

obeikandl.com